



تترقق عبرات الفيض والشر ... وهو يستشعر في نفسه السمو على من حوله من رفاقه جميعاً حتى الطالب الجامعي مولر ، ثم هو يحتقره ويزدرجه لأمر في نفسه ، وهو دائماً يهيج غيظه ويثير غضبه بكلمات فيها السخرية والتهكم ؛ ولكنه الآن قد جالس في هدوء وصمت ، ونظراته تقتحم هذا الطالب القذر ... وفي الناحية الأخرى من النضد جالست اليصابات أخت كلوتيلدا الصغرى وهي في السابعة عشرة ، ثم ابنة عمها كلارا وهي في السادسة عشرة ، ثم فتاتان في سنهما هما هيلين وماري أختا أُنُو وهو في الخامسة عشرة ، وهم أبناء أحد الجيران وكلهم يلعبون الورق في هدوء وسكون تبدو عليهم اللذة والنبطة ... إلا الطالب مولر فقد جالس يقرأ شعراً

وراح أُنُو يتنأب في ملال ، وممرت العدوى الى كلارا ف راحت تنأب هي الأخرى ، والى جانبها اليصابات تفيض نشاطاً وحياة ، ويزعجها ما ترى في هذين من كسل فتثور بهما الفينة بعد الفينة ... وابتدأ الخول يتسرب الى النفوس ؛ غير أن المغارم ما تزال تدفع الى كلوتيلدا المرة بعد المرة ؛ والمطر ما يزال ينهمر والرياح تصفر صفيرها الزعج وأرادوا أن يردوا المغارم الى أهلها ، فأرغموا الذين خسروا على أن يعملوا عملاً : فهيلين تقف

أرخی الليل سدوله على الكون ، والمطر ما يزال يتهاطل رذاذاً يلاطم زجاج النافذة في رفق ولين ؛ وهم في حجرة من منزل ريفي حيث يقضون عطائهم ، وقد تناثروا حول نضد عليه مصباح ينبعث منه ضوء هاديء ضئيل ؛ وهم جماعة من الشبان والشابات بين الربيع الخامس عشر والعشرين من العمر ؛ وكلوتيلدا أكبر الفتيات سنًا لم تسليخ الثامنة عشرة ؛ فتاة في مستقبل العمر ونجى الحياة ، في ميمة الصبا واكتمال الأنوثة ، تضطرم في وجنتها حمرة الشباب والجمال ، هيفاء جذابة ، فيها الملاحاة والظارف ، وفي نظراتها السحر والفتنة ؛ وهي جالسة الى جانب طالب جامعي رثّ اللبس ، زرى الهيئة ، منتقع اللون ، تبدو على وجهه سمات الحياء والجن ، وفي نظراته الاضطراب والضمف ؛ ثم هو هاديء رزين ، يرى مجون من حوله فيبسم في هدوء ودعة ، ثم لا يخوض فيما هم فيه من لهو وعبت ... وقبلت كلوتيلدا يجلس أنيلو وهو شاب في السابعة عشرة كثر الشعر سبطه ، تنبعت من عينيه أشعة نقادة علامة ذكاء وفراة ، وفي وجهه يتدفق دم الشباب الحار علامة صحة وسلامة ، ويدها منقبضتان كأنما تحمزان ثميناً علامة قوة وفتوة ، ثم هو قد ورث عن أمه الألمانية الميل الى الصراخ في وجه من يمانده ، صراخ الغضب والحنق ؛ وفي عينيه

كلوتيلدا : « نحن بخير يا أماء ! » وقالت اليصابات :
« لقد أفرغنا المطر والريح . وماذا تفعلين أنت
وأبي ؟ أما ترالان تلعبان الورق ؟ » قالت المرأة :
« نعم ، ما زلنا ... اتخذوا لكم سلوة ... » ثم
أغلقت الباب في رفق وساد الصمت
مرة أخرى

وانطلقت كلوتيلدا وكلارا الى النافذة تنظران
من خلال الزجاج ، فانطلق مولر على آثارها وأنيليو
جالس الى النضد ينظر ... وأتو يضرب في أنحاء
الحجرة يغني أغنية انجليزية اهتزت لها اليصابات
فراحت ترقص على نغماتها وابنتا الجار ترمقانهما في
لذة وطرب

وهي حين بفتة انتفض أنيليو وهو يقول :
« ما هذا ؟ ماذا وراء ... ؟ أفيسيطر علينا الخوذة
والكسل فنظل في هذه الحجرة الضيقة طول الليل ؟
لا بد أن نعمل شيئا ... » قال مولر وهو يهيم في همهم :
وما تطلب الينا أن نعمل ؟ قال : « فلنعمل شيئا ..
شيئا مثل ... فلنذهب الى الغابة » قال الآخر :
« عجباً ، أفنذهب تحت هذا الماء الممهر ؟ » وراح
أنيليو بقلده ويسخر منه « الماء الممهر ؟ » لقد
كان يهض هذا الطالب من قلبه ، أما الآن وقد
رأى كلوتيلدا تنظر اليه شزراً حين سخر منه فقد
استحال هذا البهض الى كراهية ومقت يخزان
قلبه في غير رحمة ولا شفقة

لقد رأى هو هذا الطالب منذ فترة يقف الى
كلوتيلدا وقد ألصق جسمه بجسمها فأحس هو
بالدفء والحياة ، وأحست هي .. ثم .. ثم ارتدت
إليه ذكرى أيام عطلة عيد الامبراطورية حين كانت
كلوتيلدا لا تراقص إلا هذا الشاب ولا يراقص

صامتة لا تتحرك ولا تتماثل ، وكلارا تحفظ
قطعة من الشمر ، وأنثوا يقلد صوت الحيوان ،
وكلوتيلدا تصطنع الحماقة فتهدم على رفاقها بألفاظ
جافية نابية ، وأنيليو يمثل دور صملوك أرسطوقراطي
تعيته رفيقته اليصابات

وراح أنيليو يتصملك على كلوتيلدا ، وحين
وقف بأزائها نزت منه نزوات العاطفة الفياضة
الجامحة ، وأحس كأن ناراً تستمر في قلبه ، فرفع
يدها الى فيه يريد أن يقبلها ، وعيناه تحديقان في
عينها ، ثم ذهل عن نفسه ... وأجهدت اليصابات
نفسها في أن تجره بعيداً فأبى وقلبه يضطرب ...
وسحبت كلوتيلدا يدها في رفق ، وفي نظراتها
الشفقة والمطف ، وعلى فيها ابتسامة رقيقة ؛
والجميع يرمقونه في دهشة وعجب ، إلا مولر فقد
سيطر عليه الحقد والغبط

وانتهج أنيليو ناحية ، وثار به اليصابات :
« حقاً لقد كنت وقعاً » وأصم الشاب أذنيه عن
لوم الفتاة ، ونهتهم ماري الى أمر حين قالت :
« والآن ماذا نفعل ، والمطر ما يزال يتدفق ؟ »
وكانت العاصفة تزار وتصفع جدران الدار في شدة
وعنف ، ثم اضطرب المصباح يوشك أن ينطفئ ؛
وفزعوا جميعاً حين سمعوا الباب يصصر صريراً شديداً
وأوراق الأشجار تعصف بها الرياح فتنبعث منها
أصوات مزعجة ، والسماء ترعد وتبرق تنذر بأمر ؛
وران عليهم حزن عميق نزع عنهم ما كانوا فيه
من صرح ولهو ، فوجوا ...

وفتحت باب الحجرة المجاورة امرأة فيها
الجمال والظرف ، وقد تشعث شعرها الأسود الناعم
وعلى شفيتها ابتسامة عذبة ثم قالت : « ماذا بكم
يا أولادي ؟ لماذا تجلسون في صمت ؟ » وأجابت

عن هذه الأصوات المنكرة ، هذا وقت سرور بانقطاع المطر ! » وقال الطالب وهو يبسم في سحرهم : « لقد انتهى هناك وأبدأ هنا . . . في الدار ! » وفي الحق لقد كانت القطرات تتساقط من خلال السقف في رفق أولاً ثم في شدة ؛ وفنحت اليبابات النافذة فاندفع الى داخل الحجرة هواء ندى بارد نفث فيهم جميعاً روح النشاط والقوة ، فقالت كلوتيلدا : « الآن نستطيع أن نخرج الى نزهة قصيرة . . . » ووافق هذا هوى في نفوس الجميع فانطلقوا يفتشون عن معاطفهم وبقعاتهم في صخب ولجب ، ثم راحوا يتشاورون فيما يفعلون . . .

وقال مولر : « نزهة في الغاية مشياً على الأقدام » فأجاب أنيليو في إحتقار : « مشياً على الأقدام ؟ كيف ؟ كأنك تريد أن ينطلق كل اثنين معاً ! كأنك تعنى . . . ! » ووقفت الكلمات على شفثيه فما استطاع النطق ، فأجابت كلوتيلدا حين اضطرب الشاب : « الأدب والحياء يا أنيليو ! » وخمد ما كان في أنيليو من حماسة وشجاعة حين رأى عيني الفتاة تقدحان شرراً يتطاير ، وهفت نفسه الى أن يعتذر ، غير أن كبرياءه ألجته فحمد في مكانه . واندفع الشاب وقد ارتد إليه هذوؤه : « لعل ما فيك من ذكاء وفراهة قد أوحيا إليك بشيء ، فما هو ؟ » وأحس أنيليو بالصفعة في وقت معاً فتخاذل ثم قال : « إلى النهر ، ونصحب معنا المصاييح اليابانية ندرأ بها الظلمة والضلال . أموافقون ؟ » وصاح أتو واليبابات معاً : « حسن ! » وتبادلت هيلين وكلارا النظرات . . . نظرات الفزع والريبة ، وبدأ عليهما الجبن والخور ، غير أنهما ما استطاعتا أن تقولاً شيئاً ، وقالت كلوتيلدا للطالب مولر : « ماذا ترى ؟ » قال : « لا بأس ، فما في النهر ما يفزع وقد هدأت العاصفة ! » قالت هي : « أفتعتقد ؟ » وآلم أنيليو

هو غيرها . . . ثم هي لا تذكره هو إلا في النهاية وقد أوشك الحفل أن ينفض فتتطابق إليه تسأله : « لماذا لم تراقصني ؟ » فيجيب في جفاء : « لا أستطيع الرقص ! » وقلبه ينازعه إليها . فتهز هي كتفها ثم تنطلق الى صاحبها ، ليظل هو وحده يتعنى لو آوى إلى فراشه وقد أجهده التعب وأضناه السهر . غير أن ريح كلوتيلدا كان يرف عليه عطر أندياً بين الفينة والفينة فيبعث فيه النشاط والصبر

لقد ذكر أنيليو هذا وغير هذا مما كان ، فكلوتيلدا ومولر كانا يسيران دائماً جنباً الى جنب ، وبأتيان أمراً واحداً ، ويتبادلان الهدايا والنظرات والابتسامات كما شقيين يهفو قلب كل منهما نحو الآخر فما يستطيع عنه صبراً ، وارتدت الحوادث المؤلة في خاطره يشد بعضها بعضاً فطأطأ رأسه وذهب في غمرات من الأفكار السود ؛ واستطاع أن يرفع رأسه — بعد لآي — وأرسل من أعماقه زفرة كاد ينشق لها قلبه . . . ثم نظر الى النافذة في فتور وتكسر فما رأى أحداً ، فأدار بصره يبحث فاذا كلوتيلدا وصاحبها قد جلسا يقرآن شعراً في كتاب واحد والحجرة في سكون القبور . . .

وقطعت اليبابات هذا الصمت العميق بقولها : « أنيليو ! لقد قلت شيئاً ثم أمسكت ! » وفزع هو حين رأى الفتاة تنزع من أخيلته وأراد أن ينحط عليها بكلمات قارسة لذاعة جزاءاً وفاقاً لما أنبته به منذ حين ، غير أنه هدأ من ثورته وقال : « أنا ؟ أنا لا أذكر ! » وصاحت ماري من جانب الحجرة : « لقد انقطع المطر ! » وصاحت هيلين من الجانب الآخر : « حقاً ، حقاً ! » وانطلق الجميع الى النافذة يتدافعون ويتصايحون وكادت تقع بينهم مشادة لولا أن كلوتيلدا زجرتهم : « أمسكوا

والنف حولها الباكون يشجعونها فصرخت أخرى وهي تبكي : « أنا لا أجسر » فطوقتها هيالين بيديها وهي تقول في رفق : « لا تخزني ، سأظل إلى جانبك » وصاح أنو : « نعم ، أيها الجبناء ! » ثم اندفع ليأخذ مكانه في القارب واندفعت اليعصابات على أثره ثم ماري ؛ وأمسك هو بالمجدافين وجذب القارب إلى اليم في قوة وهو يغنى ...

وفي القارب الثاني كلوتيلدا ومولر وأتيليو . ودفع أتيليو القارب بين الأمواج في تيار جارف ، ثم ... ثم هبت الريح شديدة عاصفة ، واضطرب النهر ، وبمدت الشقة بين القاربين ... وفزعت ماري واضطربت اليعصابات ، فأرسلنا مراكب صيحة عالية أفزعت أنو وزعزعت عزيمته ، واضطرب لها قلبه فارتد إلى الشاطئ وقد خشي مقبة الاندفاع وجرف التيار القارب الآخر ؛ وأتيليو ومولر مجدافان في صمت وإطراق ، وكلوتيلدا تضطرب وقد سلها الفزع من رزائنها ... ثم انطلق المصباح قران عليهم ظلام عميق ، وخيل إليهم أن صوراً خفيفة تنعكس على صفحة الماء ، وأن أصواتاً خشنة تنبعث من كل ناحية فتنتفث في القلوب الرعب والمهلع ... وأجهد الشبان أنفسهم عبثاً أن يبلغوا الشاطئ ، والأمواج تجذب القارب في شدة وعنف ، وبدأ لهم جميعاً في كل ما يرون معنى من معاني الحزن واليأس ، وترأت لهم الأصوات حولهم تشبههم إلى النهاية ..

واستولى السكلال على الطالب فأطلق المجداف من يديه وهو ينظر إلى كلوتيلدا فابتسمت ابتسامة صرة وقد سيطر عليها الأمل واليأس ، وانتفض أتيليو يقبض على المجداف الذي أطلقه مولر وهو يصارع الأمواج في عزم وقوة ، ثم أرسل صيحة دوى لها المكان : صيحة فيها السرور والبشرى لأنه

ما رأى فقال : « لا خير ، فأنا ذاهب ومن أراد فليتبمعي » ثم انطلق وفي نفسه الثقة والعزم ؛ وانطلق الجماعة على أثره

وساروا في طريق غير معبد وسط حديقة مهملة ، قد تشعثت فيها الأغصان وأوراق الأشجار ونبتت فيها الحشائش هنا وهناك ؛ والرياح تعصف فتهمز الأغصان فتتساقط عليهم قطرات كبيرة من الماء تبلل ملابسهم ووجوههم ؛ وأقدهم تنوص في أرض رطبة لينة ؛ وحين بلغوا النهر صاحت اليعصابات : « المصاييح ، المصاييح ! » وانبرى أنو في شجاعة .. ثم انطلق إلى الدار ليحضر المصاييح والثقاب

وكان الماء يندفع بلاطم بعضه بعضاً فينبعث منه خرير كهدير الرعد ، والأمواج تضطرب وترجرجر ، والتيار يحمل بعض الأغصان وأوراق الشجر وقطعاً من الخشب ، وفي فجوة على الشاطئ قاربان أترع أحدهما بالماء .. واندفع أتيليو ينشل الماء من واحد ، ومولر إلى جبل القارب الآخر بفك عقدة ، والفتيات ينظرن في صمت ، وكلوتيلدا تنظر إلى السحب المتكاثفة في السماء

وأفلح الطالب في حل رباط القارب ، وحين انطلق إلى الثاني كان أنو قد عاد وصدره يعلو ويهبط من أثر الاجتهاد والمصباحان تحت مظلة . وراحت ماري تهزأ بالطفل حين رآته قد أساء اختيار المصاييح فتصايح الصبية ، ودوى الصوت في أذني الطالب يزعمه وقد أعجزه أن يفك العقدة فصاح في غمظ : « الصمت ، الصمت ! » وكان أتيليو قد انتهى من عمله ، فاندفع إلى الطالب ينزع منه الحبل ، وفي لحظة البصر كان قد حل العقدة ، ثم أضاء المصباحين في مهارة وإتقان ، ثم قال في هدوء وكبرياء : « فلنبدا ! » واضطربت كلارا ثم صرخت : « أنا لا أجسر »

استطاع أن يجذب القارب رويداً رويداً إلى الشاطئ.
وقفز مولد إلى الشاطئ وأمسك بالقارب يريد
أن يجذبه إليه ، غير أن موجة قوية غلبته على أمره
فانفلت القارب ، وأفرغه ما رأى فصرخ صرخة
شديدة ... وراحت الأمواج تنقاذ القارب وقد
ذهل الاثنان عما هما فيه لما استشعرا الصدمة ؛ وما
أحسا أن القارب قد انخرق برغم أن حذاء كلوتيلدا
كان قد اغتمر في الماء ، فسكانت ترتعد من شدة
البرد ومن شدة الخوف معاً

وأحس أنيليو بالأعباء والجهد فألقى المجدافين
جانباً وقد استرخت ذراعه إثر صراع عنيف دام
طويلاً ؛ ثم قال في أسى : « لقد تهدمت ، ستكون
النهاية ؟ » فأجابت كلوتيلدا بصوت فيه نبضات
قلها المضطرب : « استمر ، استمر » وحاول هو أن
يستمر ، غير أن قوته كانت قد تمحطت فخر على ركبتيه
ومال رأسه فلمس رداء الفتاة واستقر في حجرها ،
فصاحت : « ماذا ، ماذا تصنع ؟ .. » ولكنه كان
قد خرج عن وعيه فطوقها بذراعيه في رفق وشغف ،
ودفعته هي عنها في صمت ولين ، فاستلقى في قاع
القارب ، ثم قام وقد آلمته الصدمة ، واندفع إليها
ثانية .. لقد رنت في أذنيه صيحة خافتة ثم لم يشعر
بسوى شفتيها الجليتين تلمسان شفتيه ؛ وإلا جسمها
الفض الرطيب اللدن ينفج عبيره حواليه ، ثم بالصق
بجسمه ؛ وإلا شعرها ، وقد عبثت به الرياح ، يداعب
وجهه فينفث في قلبه الشاب معاني ومعاني ...

ونازعته نفسه إلى أن يجثم عند قدميها يتوسل
ويتوسل ، غير أن شيئاً في نفسه رده لما استطاع
أن يفعل ، ثم قال في همس واضطراب : « كلوتيلدا !
ماذا جنيت ؟ لم أفعل سوءاً ! أنا لا أذكر . حقاً ،
أنا لا أذكر ... » وخفت صوت الفتى قليلاً قليلاً ،
ولكنه ما يزال يستعطفها : « لماذا ؟ لماذا تقسين
علي ؟ لماذا ؟ لقد علقك وأغرمت بك ! » وكانت
هي قد بمدت عنه فما سمعت كلماته الأخيرة ،
وانطلق هو على أثرها . فقالت له في جفاء : « دعني ،
دعني وحيدة ! » واستطاع هو أن يرسل من بين
أنسائه الخافتة : « لا ، لا يا كلوتيلدا ! لم أجن ولم
أجترى ! إن قلبي ... » ثم راح يلين ما قسا من
قلها ، ومن حولها الطبيعة القاسية عابسة مهتاجة
تبعث في قلب الفتى الأسى والحسرة ، وهي ...
هي كلوتيلدا تنفث فيه اليأس والألم ...

استطاع أن يجذب القارب رويداً رويداً إلى الشاطئ.
وقفز مولد إلى الشاطئ وأمسك بالقارب يريد
أن يجذبه إليه ، غير أن موجة قوية غلبته على أمره
فانفلت القارب ، وأفرغه ما رأى فصرخ صرخة
شديدة ... وراحت الأمواج تنقاذ القارب وقد
ذهل الاثنان عما هما فيه لما استشعرا الصدمة ؛ وما
أحسا أن القارب قد انخرق برغم أن حذاء كلوتيلدا
كان قد اغتمر في الماء ، فسكانت ترتعد من شدة
البرد ومن شدة الخوف معاً

وأحس أنيليو بالأعباء والجهد فألقى المجدافين
جانباً وقد استرخت ذراعه إثر صراع عنيف دام
طويلاً ؛ ثم قال في أسى : « لقد تهدمت ، ستكون
النهاية ؟ » فأجابت كلوتيلدا بصوت فيه نبضات
قلها المضطرب : « استمر ، استمر » وحاول هو أن
يستمر ، غير أن قوته كانت قد تمحطت فخر على ركبتيه
ومال رأسه فلمس رداء الفتاة واستقر في حجرها ،
فصاحت : « ماذا ، ماذا تصنع ؟ .. » ولكنه كان
قد خرج عن وعيه فطوقها بذراعيه في رفق وشغف ،
ودفعته هي عنها في صمت ولين ، فاستلقى في قاع
القارب ، ثم قام وقد آلمته الصدمة ، واندفع إليها
ثانية .. لقد رنت في أذنيه صيحة خافتة ثم لم يشعر
بسوى شفتيها الجليتين تلمسان شفتيه ؛ وإلا جسمها
الفض الرطيب اللدن ينفج عبيره حواليه ، ثم بالصق
بجسمه ؛ وإلا شعرها ، وقد عبثت به الرياح ، يداعب
وجهه فينفث في قلبه الشاب معاني ومعاني ...

ووقف القارب خجاة ، فالتفت هو مذعوراً ،
فبداه أنهما على خطوات من الشاطئ ، وفي قوة
الشباب وعزيمات الرجولة جذب القارب فاذا هما ...
فاذا هما في أمان ... ثم هبطا إلى الأرض وقد ابتدأ
الظلام ينحسر عن جبين الفجر وهما يستشعران برد
الليل في مفاصلهما

وبدا لهما شبح يضرب في الأرض يبحث عن شيء ، وارتفع من ناحيته صوت ينادي : « من هناك ؟ أنيليو ... كلوتيلدا ... » إنه هو ... هو الطالب مولر . ونادت كلوتيلدا : « هيا ! إنه أنا » ثم اندفعت مولية ...

لقد رأى أنيليو الطالب يسرع نحو كلوتيلدا ، وراها هي تسرع نحوه ، ثم وقفا جنباً إلى جنب ، وخيل إلى أنيليو أنهما يتعانقان فتجهم وتعبس ؛ وهبت نسمة من سمات الفجر تحمل إليه حفيف الأوراق كأنه قبلة ! فارتعد وانتفض قلبه ، ثم جمد في مكانه ، وقد استولى عليه دوار شديد فأغلق عينيه حيناً ... وحين أدار بصره رأى الصديقين يلفهما الظلام ، وهو ما زال يسمع صوتاً يناديه : « أنيليو ، أنيليو ! أسرع فنحن في انتظارك ! » وانطرح على الحشائش الندية ، والأزهار من حوله تنفخ عبيرها الشذى تريد أن تبعث فيه الهدوء والنشاط ؛ غير أنه كان قد انطوى على آلام مبرحة يتفطر لها قلبه ، وتنداعى لها رجواته ؛ وأظلمت الدنيا في ناظريه ؛ فراح يتقلب في قلق ومضض ؛ وتدفق اليأس في قلبه لينزع عنه نور الحياة وجمالها ؛ واستولى عليه شعور غريب ... شعور الفرار من على الأرض ، من هذا العذاب ... وبدأ له الحياة ، بعد التي أحب ، عبثاً لا خير فيها

واضطرب شبح الموت في خياله ، وتراءى له أنه يشق إليه الظلام في مثل عصفه الريح وهدة الموج ؛ وكلوتيلدا ماثلة في خواطره ؛ فهو يراها ومن عينيها السوداوين تنبعث أشعة آمرة تجذبه اليها في غير هواة ولا لين ، وهو يرى وجهها الوضاء الجميل ، وعلى شفيتها ابتسامة رقيقة عذبة ؛ وهو يرى قدها النحيل الضامر يتهدى في دلال

ورقة ... وهو يرى ... وهو يرى ... وثبتت الفتاة في خياله ما تبرح ولا تتحول ؛ فأحس بدمه يغور في عروقه ، فهب يريد النهر ...

واستقبله النهر وفي خريف أمواجه العويل والبكاء ، وجلس هو على شفا جرف يردد بصره في هذا الخضم ، كأنما ينظر الى نهايته ؛ وفي أذنيه ترن هذه النغمات الحزينة تنير في نفسه الشجن والحزن ، ثم راح يحدث نفسه : « لو أنني ألقيت بنفسي لانهت متاعبي ... » لقد عصفت به أحزانه فملا بته عقله ، فراح ينشق سمات النهر في لذة ومتمعة ، ويرى في اضطراب الأمواج وزجرجرتها رنات فيها السحر والفتنة ... هنا ... هنا ينتهي شبابه ويطوى كتاب حياته ... ثم اضطرب وسرت في مفاصله حُميا الخوف ، فقال يهدى نفسه : « ما هذا ؟ إن المرء لا يموت إلا مرة ! » غير أن الجبن والخور وحب الحياة والحسرة على شبابه كانت جميعاً قد استيقظت في قلبه فارتد عن النهر فرزعاً لقد ذهل عن نفسه فما استطاع أن يسمع وقع أقدام المارة ولا أصواتهم وهم يقتربون منه ، وقد ابتسم الفجر ... وأصر على أن يرجع إلى الدار لينام ، فيستجم ، فينسى ... ثم انطلق وهو يقول : « وبلى ! أفكل هذا في سبيل الفتاة ... ؟ »

وعلى حين بغتة أحس بيدين تلمسانه في رفق ، ووجه بلاتنه المبرات يلصق بوجهه في عطف وحنان ، وهي تضمه إليه في شوق وشغف ، وأضاءت الحياة في عينيه مرة أخرى ، وشاع السرور في قلبه ، وسيطرت عليه نشوة اللذة والسعادة ، ثم فتح عينيه يستشف ما وراءه ، ففرع فارتد ... ثم اندفع ثانية ليلقى بنفسه بين أحضان أمه